تأملات :

فى مملكة الحيوان

للأستاذ محمود الدسوقى

فى إحدى السنين التى كان خلو الذهن فيها ظاهرة بادية فى الشعوب ، وإشغاله ظاهرة تبدو على الحكومات ، والتى كانت فيها الطبيعة آمنة ، وكان الناس من نحوها آمنين مطمئنين – فى إحدى هاته السنين زرت أوربا ، وأوربا كعادتها جمة النشاط ، منصرفة إلى التجديد ، والطبيعة باسمة حالمة يفيض قلبها بالحب وتزخر على جوانبها الأمانى ، فلم يرعنى شىء كالألفة القائمة بين الحيوان والإنسان تقليداً ترعاه التربية العامة ، ولا يغفل إلا بمقدار

وقد كان بينى وبين الطير والحيوان حديث ما أعذبه ، فلم يكن فى الجو ما يقصى الطير عن شجره والحيوان عن مأمنه . والطير والحيوان أحب الرفاق إلى الإنسان إذا أعوزته الرفاق ، فهما أحفظ لسره ، وأبقى على عهده ، وأطوع لإرادته ، ما دام كل شىء يجرى معهما على سجيته

لم أقصد إليهما كما فعل التاجر هورن ، فأقتحم عليهما الغاب والآجام ، فأنا أعرف بالحدود من ألا أقف عند حد . بل إنى حاولت أن أجتمع بهما وأنا آمن ، وهما عديما الحيلة عديما الأذى . وهل فى غير حدائق الحيوان ينشد المرء مثل هذا اللقاء ؟ وإنه لمتعة للنفس ، وفرصة للنظر والدرس ، وساعة للتحصيل لا تجلب السآمة

وقد كنت أغشى حديقة الجيزة فيما مضى من الزمان ، فإذا الظاهرة التى تسترعى انتباه من يعنيه الانتباه إلى علاقات المخلوق الطليق بالمخلوق الحبيس هى اضطهاد وتحفظ ، اضطهاد من الزوار الذين لا يتورعون من مضايقة الطير والحيوان كل فى قفصه ، وتحفظ من الطير والحيوان ، إذ هو لا يقترب إلا حذراً ، ولا يبتعد إلا متوجساً

وغشيت فى تلك السنة التى ألمت إليها إحدى حدائق أوربا العامة المترامية الأطراف التى يضل فيها السائر من دون خريطة ، وتسعف فيها المركبات من كانت قدماه قلت : غشيت تلك الحديقة ، فإذا الكلفة التى ألفنا أن تكون فى حديقة عامة بين الطليقين من الإنسان والحيوان مرفوعة ، وإذا ألفة معقودة بين المخلوقات تجعل من الحديقة سفينة أخرى لنوح عليه السلام . وقد لفت نظرى عند جزع شجرة أطفال دون العاشرة « وسنجاب » فى أعلى الشجرة ، والسنجاب حيوان خفيف الروح ، تملكه بالإحسان والدعابة ، لكن تبضك الريح كقبضك عليه . وقد ناداه طفل بالاسم الذى آثره به فأحس فى الحال أنه المعنى بالنداء ، فدلف من فرع إلى فرع ، ووقف عند متناول اليد ، فمد إليه الطفل يده بالغذاء غير باغ ، فتناول « السنجاب » حاجته منه وارتد . وجعلت طفلة تستهويه بشىء جديد ، وتناديه كذلك باسم جديد ، فإذا السنجاب دالف على عادته ، مؤدٍّ مهمته ، والأطفال بين ضاحك وباذل ومتعجب « والسنجاب » فى تلك الأسرة الصغيرة ابنها المدلل المعزز

ولقد خطرت لى فكرة التحدث إلى السنجاب ما دام من سجاحة الخلق بهذا القدر فحاولت أن أختلى بأخ له بعيداً من مجمع الأطفال إذ كنت قد نسيت فنونهم من قديم ، وإنى إلى ذلك لأتحاشى أن يذكرونى بهذه الفنون ؛ فكان أن لقيت سنجاباً فدعوته إلى ناحية فتطلع إلىّ ولم يزد إذ كانت يدى خالية مما يطمع فيه ، وانطلق ليستروح طيب الشمائل من غيرى

والعصافير فطينة أليفة فى تلك الحديقة تتصيد المارة . وكثير من الناس يطوفون بالحدائق العامة وفى ميزانياتهم رصيد محترم للطير والحيوان . فالحب دائماً على أكفهم لا يبذرونه ، ولكن يقع الطير عليه فيلتقطه غير هياب . وقد لقيت غير بعيد عصفوراً جاثماً على فرع شجرة ، فما إن اقترب منه عابر سبيل باسطاً يده بالنذر اليسير حتى هبط على يده والتقط الحب فى لمح البصر ، ثم عاود الجثوم ، وعاود المار الكرة وعاودها العصفور ، حتى إذا خرجت يد العابر من هذه المعاودة وهى خالية إذا بالعصفور يحيل

يمنة ويسرة ، ويصل بين ذنبه ورأسه . ولا أدرى أ كان يبنى بما فعل أن يرد الحسنة بعشرة أمثالها أم كان يبنى المزيد

وجلست فى حديقة للحيوان غشيتها بعد ذلك بأيام على مشرب أستريح . وعلى كثرة أقفاص الحديقة وحظائرها ، والمواطن التى أنشئت فيها على غرار الطبيعة ، ليحس فيها الطير والحيوان أنه فى بيته — كنت أجد الطاووس يخطر فى طرقاتها ومماشيها مع الزوار جنباً إلى جنب أو معترضاً طريقهم ، وكنت ألقى الدجاج الزاهى الألوان البديع الريش يسرح بين الناس فى طلب الرزق . وليس فى هذا ما يستحق الذكر ، لكن حين جلست إلى مائدة المقهى أقبل على الدجاج فى رهطه ومنه طائفة من الديكة الرومية أحاط بى جميعها فى انتظار ما يكون . وكان أن طلبت فنجاناً من القهوة يعيد إلى رأسى بعض ما انتهب التعب ، فأدرك الدجاج أن ليس ما يطلبه عندى فلا فطيراً رأى ولا كعكا ، ولا قراطيس مما يحمل المسنون ؛ ولم يشأ أن ينصرف مع ذلك عنى فلعله خشى أن أتهمه بالنفعية أو لعله لم يكن قد يئس بعد من كرى وأنا رجل غريب لا علم لى بتقاليد الحديقة

واستأنفت المطاف فى الحديقة ووقفت أمام حيوان صغير لطيف يشبه النمس ويدى فى جيبى ، فتبعها بنظره شأن المترقب حتى إذا خرجت وألقاها فارغة رمانى بنظرة لم يخف ما فيها من ازدراء .

***

تعرف الحرية القيود جد المعرفة ، وقد لا تعرف غير القيود! فليس ثمة إباحة إلا ولها شرط . وقد كنا إلى عهد قريب نسرف فى تقييد حرية الطير والحيوان فى حديقة الجيزة، ثم احتذت مثال حدائق الحيوان فى الغرب فى كثير ؛ لكنا لا نرى فيها ما رأيت حين تابعت السير فى الحديقة الأوربية من قطعان الحير التى لا تعرف الحظائر أو تعرفها ولا تحتاج إليها . ولعل من الخير أن تترك الحير تسرح فى الحدائق وتمرح على هواها فقد ترتفع من هذا قيمتها ويرتفع سعر ذكائها المشهور ، فهى تحسن جرش السكر فوق ما تجيد من طحن الفول ومضغ التبن وحصد البرسيم، وهى تعرف كيف تعترض سبيلك لتنال بغيتها منك ، وكيف تدفع ظهرك بأشفارها لتلفتك إليها . وقد تسير فى الحديقة فى حاشية طيبة من البرازين تتبعك كظلك إلى حيث تشاء فى داخل الحديقة طبعاً إذا كنت رجلاً كريماً ، وكان السكر بعض ما عندك

والحيوانات جميعاً حبيبة إلىّ ، لأنها على الفطرة ، وفطرتها سليمة لم تتلف على نقيض الإنسان الذى تستنفد فيه المدنية هذا الزخر الطبيعى ، وفصيلة القط أجمل الحيوانات طراً ، لأن لها شخصية قوية ، ولأنها قادرة على النضال ، ولأن كل حركة من حركاتها جذابة فيها ظرف كثير . وهذه الفصيلة بالذات هى التى يخشاها الإنسان لأنه يتوجس منها الشر ولأنها فى يقينه غادرة خائنة وقد لا تكون أغدر من الإنسان ولا أخون ، وهنا نتساءل لماذا نحبو بالعطف غير هذه الفصيلة من طير وحيوان ونأباه على الوحش الذى ينتمى إليها ، والجواب الذى تنتظره منى أيها القارئ غير الجواب الذى أعده لك ، فليس كون هذه الوحوش تفترس فى جوعها سائر المخلوقات هو الذى يحبس عنها عطفنا وإلا فما الذى لا يفعله زعيم المخلوقات الإنسان العاقل النبيل فى جوعه ؟ وإنه ليقال إن الإنسان ليفترس أخاه الإنسان فى مسة الجوع الجنونية حين تجنح به سفينة إلى شاطئ قفر أو تتحطم به فى البحر

إن المرء ليتوجس من الوحش ويتوقع دائماً أذاه لأنه كثيراً ما يغفل من حسابه حساسية الحيوان فى حالات كدره . فقد يقربه بشىء من الملاطفة فلا يجنى إلا عكس ما ينبغى أن تثمر الملاطفة ، وكذلك يفعل الإنسان حين ينحرف مزاجه ويضيق صدره . أفلا يضيق هو أيضاً ذرعاً بالتربيتة على كتفه والمسحة الرفيقة على خده وأحياناً بالكلمة اللينة ؟ فالحيوان والإنسان فى هذا سواء وإن اختلفا فى المظهر وطريقة الأداء أو إن شئت فقل أدب السلوك . فالنمر والأسد والسنور تدهم فى استيائها ملاطفها بعضة دامية ؛ والإنسان يجبه ملاطفه فى فترة كدره بكلمة نابية أو دفعة غير لطيفة سواء فى ذلك الرشيد وغير الرشيد ، وصغار الحيوان والإنسان وحدها هى التى لا تملك فى تلك الحالة أذى لكنها تطيق الملاطفة على مضض . فالغدر والغش والخيانة صفات يشترك فيها الحيوان والإنسان ، غير أنها تصدر من الأول عن ضرورة غالباً ويرتجلها الثانى فى أغلب الأحيان .

والطبيعة التى سلحت الوحوش الضارية بأنياب أنفذ من السنان وأحد من الخنجر لا يمكن أن تتطلب منها ما تتطلب من أسنان التبن ، ولا أن تجعل مهمة الحوافر والأظلاف كمهمة المخالب والأظفار . ولولا أن للثور قرنين ما فكر فى النطح ، ولولا أن للحيـة سماً زعافاً لترمت الأحجار ؛ لكن للمخلوقات جميعاً

— والإنسان على رأسها — أوقات صفاء وفترات كدر ؛ فالنمر الذى يفترس الإنسان وهو يطلب الصيد قد يمسح خده فى كلك ويطيق أن تربت على جلده فى ساعة الرضا . بقى أن تعلم متى يكون راضياً ومتى تكون غمضة عينه ورقدته الساكنة على كدر . وكذلك هدأة الإنسان كثيراً ما تكون خطراً أى خطر ، وكثيراً ما تنطوى على أسوأ المفاجآت ؛ وهذا على فهمك الإنسان وجهلك الحيوان

* * *

إن القلق الذى يساور بعض أكلة اللحوم غريب مُسَلٍّ ، والغريزة التى تحرك صغارها أعجب وأغرب ، فقد مررت بقط السرقال المستوحش فى حديقة حيوان الجيزة ، فألفيت وجبته من اللحم النيء بين فكيه وهو مقبل مدبر ، يساوره القلق الدائم من مزاحم ينجم له من بطن الأرض ، أو لعله كان يأمل أن يتاح له من القفص مخرج فيفلت بوجبته إلى حيث يأمن الانزعاج

وتربض النمرة تتناول مخصصاتها وهى لا تقل عن صدر ثور ويأبى لها حنان الأم إلا أن تنزل عن ضلع للصغار وهى ثلاثة ذكر وأنثيان فينقض الذكر على الضلع يحاول نهشه فلا يعدو جهده سلوخاً رفيعة ينسرها بشق الأنفس ، وتجتمع عليه أختاه تحاولان صرفه عن هذا الجشع وحب الذات ، فينهرهما ويلطمهما بمخلبه فتبتعدان تموءان . لقد آثر بغريزته هذا الجهد على الرضاع المهين ، وترك اللبن لأختيه ، وأعمل هو أسنان اللبن فى الضلع وحده بلا شريك

وهناك ظاهرة ملحوظة هى الشبه بين الإنسان والحيوان فى المنطقة الواحدة، وللمناخ وطبيعة الأرض وظروف الحياة أثرها البالغ فى إحداث هذا الشبه بلا مراء . فقد مررت بالدب الأسود والدب الأبيض فى وقت كان السلام يسود فيه ربوع العالم فلم أفطن إذ ذاك إلى شيء ، ودارت رحى الحرب بين الروسيا وفنلندة ، فإذا بالدبين ماثلان أمامى أفطن هذه المرة إلى ما بينهما من فرق وأعمد إلى المقابلة ، الدب الأسود أو الدب الروسى يحاول أن يعض قضبان القفص فيعض يده ، فيئن ويتأوه ولا يبرح موضعه ، وإنما يدور فى باطنه حول نفسه فى ضجر وبرم شديدين ، لا ينقطع له تأوه ولا أنين . والدب الأبيض أو دب الشمال أنيق ، سامى المظهر ، رشيق الخطو ، يدور فى قفصه فى خطى ثابتة متزنة ، ويلتمس المخرج فى كل مكان ، فإذا عز لم ييأس ولم يحاول أن يقبع نهباً للقنوط كجاره الروسى

كذلك الببغاوات شريكة الإنسان فى البيان والمكان ، تنزوى بالمقابلة ، لحظها فى حدائق الحيوان كحظ مناطق الانتداب تستمتع بقسط كبير من الحرية ، وترسف مع ذلك فى القيود

و « البوم » محببة إلى الحكماء تشبههم فى رصانتهم وتحفظهم وتعاليهم واستصغار شأن من عداهم ، والانصراف عن التفكير فى المادة إلى التفكير فيما وراء المادة . وهى كالحكماء لا تلقيها فى مجلسها إلا صامتة ، اثنين اثنين أو ثلاثة ثلاثة ، تطيل التأمل والنظر

* * *

هذا قليل من كثير مما يعرض للمرء من أمور الحيوان . وقد نكون تناولناه فى شيء كثير من العجلة وقليل من التعمق ، والأناة والغوص من صفات العلماء ، ولسنا فى هذه العجالة منهم

محمود الدسوقى

أعظم تجربة !

ذلك أن البينة التى انتشرت ببرلين لم يمكن إخفاؤها بالتلمية لدى العلماء بأنه قد أعاد إلى شيوخ الشباب ونشاط الرجولة

فى الواقع أن «لولو نيطس» هو تجربة ترك أثراً لا يمحى فى نفس كل من يستعمله من الذين ضعفت قواهم التناسلية لأى سبب كان سواء كان ذلك ناتجاً من مرض أو من تقدم السن ، أو من الإفراط ، أو من أى باعث نفسانى كالحزن وغيره . ويعود الفضل فى اكتشاف طريقة فنية وتعادل تركيب الهرمون العجيب الذى يحتوى عليه «لولو نيطس» إلى معهد التناسليات بمدينة برلين الذى توصل إلى هذه النتيجة العلمية الباهرة بعد القيام بأبحاث مضنية دامت عدة سنين بحيث أصبح تجديد الشباب مضموناً باستعمال هذا المستحضر . طالع الكتيب العلمى «الحياة الجديدة» فتعرف كثيراً من الأمور المتعلقة بالحياة التناسلية التى قد تكون مجهولة لديك إلى الآن . ونحن نرسل إليك نظير ٥ م للنسخة الفرنسية أو الإنجليزية المحلاة برسوم ذات ٥ الوان و ٣ قروش للنسخة العربية .

جلا نهورمين صندوق بوستة ٢١٠٥ بمصر

(سجل تجارى ٥٢٢٧)